مجلة الآداب، م٢٦، ع١، ص ص ٦٧-٨٥، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٤م/١٤٣٥هـ)

شعريّة الوقفة في أحداث المدحة النّبويّة: (العصر المملوكي)

خديجة محمد أديب ألف

معيدة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة البعث، سوريا

(قدم للنشر في ١٤٣٤/٢/٨هـ وقبل للنشر في ١٤٣٤/٤/٢٠هـ)

الكلمات المفتاحية: شعرية الوقفة، المدائح النبوية، العصر المملوكي.

ملخص البحث: رصد البحث شعرية الوقفة في أحداث المدحة النبوية، فعرض سبب اختيارها، ثم عرّفها عند النقاد القدماء والمحدثين، وبيّن أنواعها ووظائفها.

أمَّا صلبه فدراسة تطبيقية تتجلى فيها أثر الوقفة في منح النّص صفة الشّعريّة، وذلك من خلال تطبيق أنواع الوقفة - (التضمينية- التعليقية) - على نصوص المدح النّبوي في العصر المملوكي.

وانتهى البحث إلى عدّة نتائج أهمها:

١- الوقفة التضمينية- كما تجلت في المدائح النبوية- وقفتان:

- وصفيّة تعرض ظروف الواقع وعوامل الضعف في أغلب الأحيان.

- استرجاعيّة تناسب كل زمان مما ساعد المادح في التعبير عن رؤية إصلاحية تتمثل في استنهاض الماضي لإصلاح الحاضر.

٢- الوقفة التعليقية آلية فنيّة وظيفيّة دالة على معنى، إذ إنها تجمع بين أمرين: الإصلاح وعرض ظروف الواقع. وكل هذا وذاك أدخل المدح النبوي في نطاق النقد السياسي والاجتماعي.

٣- جعلت الوقفة المدحة النبوية وسيلة لإحداث التغيير وبناء مجتمع جديد من خلال ضرب المثل بالقدوة الصالحة في كل زمان.

مقدمة:

الشعرية مفهوم قديم مصطلح حديث، اتّضحت معالمها على يد الشّكلانين الّذين حاولوا خلق علم أدبي مستقل يستند إلى خصائص المادة الأدبيّة، وجعلوا موضوعه ما يمنح النّص سمة الأدبيّة. وهذا يحيل على قضية مفادها أنّ القيمة الجماليّة لا تكمن في المعنى بل في آليات تقديمه. ولم تكن هذه

التقانات ثابتة مستقرة نتيجة تعالق الشّعرية بقضايا أخرى، وقد بيّن (تزفيتان تودوروف) ذلك في أثناء حديثه عن العلاقة التي تربط الشعرية بالبنيوية واللسانيات والتأويل ...؛ لأنها لا تسعى إلى تسمية المعنى بل إلى "معرفة القوانين العامة التي تنظّم ولادة كلّ عمل ...[و] تبحث عن هذه القوانين داخل الأدب ذاته"(تودوروف، د.ت، ص ٢٣).

وقد طبّق (رومان جاكبسون) معايير لسانية تتيح للمحلل الكشف عن الوظيفة الجمالية، ونقل مجال اشتغالها إلى الأدب، مؤكداً أنّ معارضة الشعر بما ليس شعراً أمراً رئيسياً لمعرفة (ماهو الشعر؟)(جاكبسون، ١٩٨٨م، ص ٧٧)، مما يثبت أنّ إطلاق صفة الشعرية عائدٌ إلى النص نفسه لا إلى عوامل خارجة عنه، فتغدو تبعاً لذلك مقاربةً للأدب، تعنى بالخصائص التي تعبّر عن تفرّد الحدث الأدبي (تودوروف ، د. ت، ص ٢٣).

واهتمّ (جان كوهن) بدراسة الصور في الشعر بعد أن طغت الدراسة البلاغية التقليدية، وأكدّ أنّ الانزياح جوهر النظرية الشعرية، يقول: "كل منافرة محصورة في عنصرين من عناصر المدلول وقابلة للتعطيل بمجرد حذف هذا العنصر فهي عندنا انزياح من الدرجة الأولى" (كوهن، ١٩٨٦م، ص ١٢٣).

وفحوى القول أنّ إطلاق سمة الشّعريّة مرتبطٌ بمعرفة آليّات بناء النّصّ، ولم تكن تلك الآليّات موضع اتّفاق بين النّقاد القدماء والمعاصرين. يضاف إلى ذلك تعدّد مناهج الباحثين ممّا أدّى إلى تعالق الشّعريّة بعدّة قضايا، منهااللسانيات، التّناص، السّرد، التّأويل، الأسلوبيّة... .

وتظهر شعرية الأحداث في المدحة النبوية من خلال آليات تتّصل بالبديع و المجاز... .

ويعنى البحث بدراسة آلية الوقفة السردية في أحداث المدحة النبوية، فقد قطع المادحون التّتابع الزّمنيّ لسير الأحداث المسترجعة بأخرى مستمدةٍ من الواقع، وهذا يحيل على آليّة الوقفة الزّمنيّة في المدحة النّبويّة الّتي استقت مادتها من مصادر متعددة. ومع ذلك لم يرصد النّاظمون الأحداث ويذكروها بالكيفيّة عينها، بل استوقفتهم أمور عرضوا بعض جزئيّاتها وأتبعوها بأخرى مستقاةٍ من زمانهم أو العكس، أي تقديم أحداث زمن النّظم على المسترجعة، ليعبّروا عن وجهة نظرهم للحدث ويبرزوا الباعث على النّظم.

وقد ركّزت أكثر النّظريات على دراسة الآليّات الّتي تميّز العمل من غيره، ومنها الشّعريّة الّتي نشأت نتيجة إحساس الشّكليين الرّوس بضرورة إقامة علم للأدب، أي وضع مبادئ مستمدة من الأدب نفسه (ابن الشيخ ، ١٩٩٦م ، ص٢٣).

ونلحظ الأمر عينه في النّظريّة السّرديّة المهتمة بالاختلاف المتعلّق بالعمل، ومكمنه في الخطاب ذلك الشّكل الفنيّ الّذي بوساطته يُبلّغ المحتوى (محمد، ١٩٩٨م ، ص١٣٩ ، ١٤١).

وتبعاً لذلك أُطلق مصطلح شعريّة السّرد المهتمّ بمكوّنات الخطاب، وتحليل الكيفيّة الّتي تحقق بها سرديّات معيّنة تأثيراً ما (كالر، ٢٠٠٤م، ص١٠٢).

والوقفة من الآليات الّتي ميّزت نظم بعض المادحين من غيرهم. ويظهر أنّ اقتصار أغلب تطبيقاتها على النّصوص النّثرية من دون الشّعريّة لا يثبت نقاء جنسٍ أدبيٍّ، فالشّعر يجمع ترابطين: المجاورة والمشابهة. وتتبدّى المشابهة في الاستعارة والتّشبيه، أمّا المجاورة فانتقال من موضوع إلى آخر تبعاً لنظام زمانيّ أو مكانيّ أو سببيّ (مفتاح،

١٩٨٥م، ص١٤٩ ، ١٥٠). ويمكن أن يكون هذا الانتقال تداخل أحداث الماضي والحاضر لغايةٍ استدعت اقترانهما.

تمهيد: الوقفة بين النّقاد القدماء والمحدثين :

الوقفة مفهوم قديم أثبته القدماء في الحديث في أثناء تعريفهم الإطناب الّذي عدّه العسكري (ت٣٩٥ هـ) أفضل أنواع الكلام، لما فيه من بيانٍ للمعاني واستقصاءٍ لها من دون أن يحوّله إلى غيٍّ بل إنّ فيه زيادة فائدة (العسكري، ١٩٥٢م، ص١٩٠ ، ١٩١). ويؤكد ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) الأمر عينه بقوله: "وبعد أن أنعمت نظري في هذا النّوع الّذي هو الإطناب وجدته ضرباً من ضروب التّأكيد الّتي يواتي بها في الكلام قصداً للمبالغة... وهو في أصل اللّغة مأخوذٌ من أطنب في الشّيء إذا بالغ فيه" (ابن الأثير، ١٩٣٩م، ج٢، ص ١٢٨ ، ١٢٩). يضاف إلى ذلك تقييده المصطلح تمييزاً له من غيره، يقول: و"هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، فهذا حدّه الّذي يميّزه من التّطويل، إذ التّطويل هو: زيادة اللّفظ على المعنى لغير فائدة. أمّا التّكرير فإنّه دلالة اللّفظ على المعنى مردداً"(ابن الأثير، ١٩٣٩م، ج٢، ص١٢٧ ، ١٢٨). وعَدَّ الإيجازَ أقربَ الطّرق إلى المقصد، وجعل التّطويلَ والإطنابَ طريقين متساويين، إلا أنّ الإطناب يشتمل على منزّه من المنازه لا يوجد في التّطويل (ابن الأثير، ١٩٣٩م، ج٢، ص١٢٨ ، ١٢٩).

وذكر القزويني (ت٧٣٩هـ) أشكالاً عدّة للإطناب منها:

أ- الإيضاح بعد الإبهام ليتمكّن المعنى في النّفس؛ لأنّه إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوّقت النّفس إلى معرفته عن طريق الإيضاح والتّفصيل.

ب- ذكر الخاص بعد العام للتّنبيه على فضله، حتّى كأنّه ليس من جنسه.

ج- التّكرير والإيغال والتّكميل والاحتراس الّذي يُؤتى به في كلام يُوهِم خلاف المقصود بما يدفعه وغير ذلك (القزويني، ١٩٨٥م، ج١، ص٣٠١ وما بعدها).

أبرز البلاغيون القدماء - إذن- الغاية المعنويّة للإطناب الّتي أظهرها المحدثون في أثناء حديثهم عن مصطلح الوقفة، فقد حافظوا على الغاية (التّوضيح والتّأكيد)، وأضافوا أموراً توافق النّظريّة المطروحة (نظرية السّرد)، منها العلاقة بالزّمن؛ فالوقفة تعمل على تسريع زمن الحكاية؛ لأنّها "حركةٌ زمنيّة ٌسرديّةٌ، وهي مع الإغفال والمشهد والخلاصة واحدةٌ من السّرعات السّرديّة الأساسيّة... ويمكن أن تحدث نتيجةً للقيام بالوصف أو لتعليقات السّارد الهامشيّة"(برنس، ٢٠٠٣م، ص ١٦٩).

لاءم التّعريف الآنف نصوص المدح النّبويّ، فقد أشار إلى أنّ الوقفة حركةٌ تسرّع زمن السّرد وهذا يلائم غاية المدحة (استنهاض الزّمن الماضي لإصلاح الحاضر). يضاف إلى ذلك بيان سبب التّوقّف عند حدث بعينه واستيفاء بعض جزئياته.

وعدّ أغلبُهم الوقفة بسبب وقوع حدثٍ مفاجئٍ فتشعر الذّات أو الشّخصية أنّ الزّمن قد انقطع تتابعه عنده . ويبدو أن تباين آراء الدّارسين أدّى إلى تعدّد أنواع الوقفة ووظائفها.

أنواع الوقفة ووظائفها :

تبدي الآلية الواحدة وظائفَ مختلفة باختلاف المادة المدروسة، ويتضح ذلك من خلال دراسات الباحثين لمصطلح الوقفة، فقد قصرها بعضهم على الوصف الّذي يقتضي تعطيل حركة الزمن (برنس، ٢٠٠٣م ، ص٥٨)؛ لأنّ غايته الكشف عن أسلوب الكاتب وثقافته، ولا علاقة له بدلالة الكلام. وعدّها آخرون ملازمةً للوصف النّاجم عن تأمّل الشّخصية، فيغدو الوصف جزءاً من حركة زمن

القصة؛ لأنّه وصف خاص بالشخصية(حطيني ، ١٩٩٩م، ص١٧٣). أمّا جيرار جينيت فجعلها استطراديّة "لها طابع التّعليق أكثر ممّا لها طابع السرد" (جينيت، د.ت، ص٤٢، ٤٣)، فالوقفة لديه مستهدفة لذاتها، تتناول حدثاً بعينه، وغايتها التّوضيح والتّفسير والإشارة إلى معنى، وخَلْق حالة مشتركة من التّفاعل بين النّصّ والمتلقّي. وأضحت عند غيره تضمينيّة تعرض مجموعة من الأحداث المتتالية، وكل حدثٍ يفضي إلى غيره لتكون تبعاته ومغزاه محل عناية وموطن الرّؤية، ومن شأن ذلك زيادة تعقيد السّرد؛ لتداخل القصص مع بعضها (كالر، ٢٠٠٤م، ص١١١).

وأوجب تعدّد أنواع الوقفة تنوّع وظائفها، والمعيار المساعد –غالباً– في تحديد غايتها (معيار الفائدة) (بارت، د.ت، ص٩٧).

وسيُقتصر على دراسة الوقفة التضمينيّة والتعليقيّة الدّالتين على معنى ملاءمةً لطبيعة المنهج الفنيّ الذي يتناول القيم الوظيفيّة الدّالة على معنى (درويش، د.ت، ص٢١٤، ٢١٥).

شعريّة الوقفة في أحداث المدحة النّبويّة

١- الوقفة التضمينيّة

بدت أغلب وقفات المدائح النّبويّة عرضاً للأحداث الواقعة في زمن نظم المدحة، يتلوه استرجاعٌ يوافق طبيعة الحدث. وقد اعتمد الصَرْصَريّ (ت٦٥٦هـ) آليّة الوقفة في أثناء كلامه على بعض جوانب الضّعف في مجتمعه، مكتفياً بالإشارة حيناً، والحديث عن بعض الجزئيّات حيناً آخر. ولا تكاد تخلو مدحة له من عرض ظروف الواقع سواءٌ أكان في المطلع أم في الخاتمة يقول (الصرصري، د.ت، ص١١٠) :

[البسيط]

إليكَ أَشْكو رسولَ اللهِ ما أجدُ
من الخُطوبِ الّتي أَعيا بها الجَلَدُ
عمرٌ أنافَ على السّتينَ خالطَهُ
سَقْمٌ لأعْنائِهِ وَسْطَ الحَشا كمدُ
ضَعْفٌ أُضيفَ إلى ضَعف وبَعضُهُما
يُوهي قُوَى الجِسمِ منّي وهْو مُنفردُ
وهمّ رَيحَانِ قلبيَ أنْ يَرى بهم
خَصاصةً شامِتٌ دَيدانُه الحسدُ
وَفَقْدُ إخوانِ صدقٍ صالحينَ مضَوا
كانُوا هم الودّ إنْ غابُوا و إنْ شهدُوا
وفتنةُ البِدعِ الشَّنعاءِ قد خلطَتْ
على البريّةِ ما تنحُو وتَعْتَقِدُ
أثارَها خَلفُ سُوءٍ خالفُوا سَفَهاً
منهاجَ سنّتِكَ المُثلى فما رَشَدُوا
وفتنةُ التترِ العُظمى الّتي قَرِحَتْ
منّا لوقعتِها الأحشاءُ والكبدُ
رمَتْ صميمَ القُوى منّا بفَاقِرَةٍ
لم ينجُ من كيدِها مالٌ ولا ولدُ
أودَتْ بمن حولَنا فَتْكاً وليسَ لنا
إلا إلى وعدِكَ الميمونِ مستندُ

بدأ الصرصري شكواه بالكلام على أمور عامّة (الخطوب)، ثمّ أخذ يخصّص ويفصّل؛ لأنّ الإيضاح بعد الإبهام يمكّن المعنى في النّفس، فإذا ألقي على سبيل الإبهام تشوّقت نفس السّامع إلى إدراكه عن طريق التّوضيح والتّبيين. وبدا ذلك واضحاً في تقسيمه الخطوب إلى قسمين:

ذاتيّ خاصّ (كبر السّن، المرض، الحسد...) وعام (الغزو التّتري) (بردي ، د.ت ، ج٧، ص٥٠ ومابعدها). وقد أتبعه ذكر الحقيقة المحمدية، يقول (الصرصري، د.ت، ص١١١):

وحزبُكَ الغالبونَ الظّاهرونَ على
كلِّ الأنامِ إلى أن ينفدَ الأبدُ
شَهِدْتُ أنّكَ خيرُ النّاسِ ما ولدَتْ
أنثى نظيرَك في الدّنيا ولا تلدُ
ولم ينافسْكَ في أصلٍ سَما بشرٌ
ولم تنلْ رتبةً نالِتْ يداكَ يدُ
نقلْتَ من كلِّ صُلْبٍ طَابَ مَحْتِدُهُ
إلى بطونٍ زكَتْ ما شَانَها نَكَدُ
حللْتَ صُلْبَ أبينَا عندَ مَهْبِطِهِ
وصلبَ نوحٍ وقد غشّى الورى الزّبدُ
وكنْتَ خيَر نبيٍّ عندَ خَالقِنا
وروحُ آدمَ لم ينهضْ بها جَسدُ
فأبصرَ اسمَكَ فوقَ العرشِ مُكْتَتباً
وتلكَ منزلةٌ لم يعطْهَا أحدُ
فحينَ تابَ دَعَا ربَّ العبادِ بهِ
فتابَ حقّاً عليهِ الواحدُ الأحدُ

أحدث النّاظم تداخلاً زمنيّاً بين أحداث الحاضر والماضي، فقدّم أمرين يستدعي كلّ واحد منهما الآخر، فالحديث عن الغزو التّتريّ على المستويين: الذاتي والعام أفضى إلى ذكر الحقيقة المحمّديّة على المستويين نفسهما، والشّكل الآتي يبيّن ذلك:

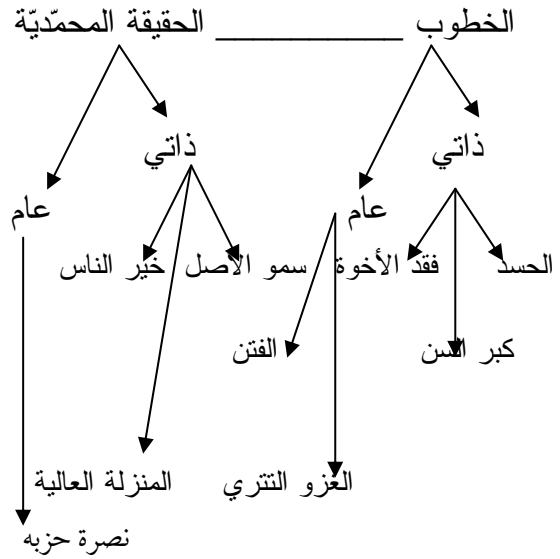

ولكن ما الذي قاده إلى ذكر الحقيقة المحمّدية بعد أن فرغ من عرض عوامل الضعف؟

يبدو أنّ طبيعة الحقيقة المحمّديّة المتجاوزة للحدود الزّمانيّة (حللت صلب أبينا، كنت خير نبي وروح آدم لم ينهض بها جسد) مكّنته من إحداث التّداخل وتضمين حدث داخل حدث، وهي تعبّر في الوقت نفسه عن رغبة المادح في استنهاض الزّمن الماضي لإصلاح الحاضر؛ لذا خصّ الوقفة الأولى لعرض عوامل الضّعف في الواقع المعيش ثمّ ألحقها بوقفة ثانية جعلها للكلام على الطّريق الإصلاحيّ (الدّعوة إلى الاقتداء بالرّسول - صلى الله عليه وسلم- الّذي تحقّق له التّجاوز الزّمنيّ). فالوقفة التضمينيّة أوضحت الغاية من ذكر الحدث، وأكّدت أنّ موطن العبرة في تبعات الحدث الأول. يضاف إلى ذلك أنّها منحت النّاظم حرّيّة الانتقال من زمن إلى آخر من دون أن يحدث خللاً في بنية النّصّ؛ لأنّ الوقفة التّضمينيّة منحت المتلقّي إحساس توقّف الزّمن الحاضر عند ذلك الحدث الّذي التفت عنه إلى حدث

مسترجع (الحقيقة المحمّديّة) يبيّن سبب ذكره من دون غيره، ويثبت باعث النّظم [تجاوز الزّمن الحاضر واستنهاض الماضي لتحقيق الإصلاح]، يقول:

وحزبُك الغالبونَ الظّاهرونَ على
كلِّ الأنامِ إلى أنْ يَنْفَدَ الأبدُ

وذلك يناسب واقع عصره، فلم تكن وقفته مع الشكوى من ظروف الواقع مقصودة لذاتها، بل إنّها وقفةٌ وصفيّةٌ لعوامل الضّعف ممّهدة للحدث القادم (طرائق الإصلاح) بأسلوب غير مباشر. ولا تكاد تخلو مدحة له من دعوة إلى الاقتداء بالرّسول للتّغلب على ظروف زمانه ملمّحاً حيناً– كما مرّ– ومصرّحاً حيناً آخر، يقول (الصرصري، د.ت، ص٢٩١): [الطويل]

فقلْ يا رسولَ اللهِ أنت نصيرُنا
على فِتنٍ في وقتِنا تتفرَّعُ
بك السّنةُ المثلى عَرَفْنَا و أنكرَتْ
قلوبٌ عليها بالغَبَاوَةِ يُطْبَعُ
بتسليمِنا فيها وَعِيْنَا وفِرقَةُ الـ
ـهوى قلّدُوا فيها العقولَ فلم يَعوا
فسلْ ربّكَ الرَّحمنَ ألا يُزِلَّنَا
عن السّنّةِ المُثلى فأنتَ مُشَفَّعُ

وتقيّل اللاحق أثر السابق في تضمين المدحة شكوى ودعواتٍ اقتدائيّةً بالرّسول (صلى الله عليه وسلم)، ومع أنّ المضمون يوشك أن يتشابه، إلا أنّ اختلاف الآليّة المعتمدة في الصّوغ أشار في أغلب الأحيان إلى ظروف الواقع، وبدا ذلك واضحاً في كلام الحلّي (ت٧٥٠)، يقول (الصفي الحلي، د.ت، ص٧٨):

إليك رسولَ اللهِ، أشكو جرائماً
يوازي الجبالَ الراسياتِ صغيرُها
كبائرُ لو تُبلى الجبالُ بحملِها
لدُكَّتْ، ونادى بالثُبورِ ثبيرُها
وغالبُ ظنّي بل يقينيَ أنَّها
ستُمحى، وإن جلَّتْ، وأنتَ سفيرُها

يشكو الحلي جرائم عامّة ولم يبسط القول فيها أو يفصّل، بل التمس لها الحلّ بأسلوب مباشر من دون أن يقدّم المضمون بآليّة تبيّن سبب اقتران الزّمن الحاضر بالماضي، مراعياً أمور النّظم (الوزن والقافية)، أمّا طبيعة الدّلالة الشّعرية فتستلزم محاورة الآليّة للوصول إلى المبتغى.

وبالمقارنة بين نصّي الصّرصريّ والحلّي يتضح أنّ خفّة وطأة الغزو التّتريّ وتراجعه دفع الحلّي إلى التّعميم والإبهام. ولكنّ الصرصريّ شهد الغزو وعايشه، ففسّر وخصّص تفخيماً للأمر وتعظيماً له . فلم يمتلك الحلّي رؤية الصرصريّ الّذي جعل الآليّة طريقاً إلى المعنى المراد. ويمكن أن يكون قد رام غاية سابقه لكن الآليّة المعتمدة لم تساعده في إيصال المقصود.

ويشكو ابن مليك الحموي (ت٩١٧هـ) ذنوبَه وزلاتِه ويتبعها ذكر الحقيقة المحمّديّة؛ لتضحي تبعات الشكوى محلّ العناية، ولعلّها الغاية من النّظم، يقول (ابن مليك، د.ت، ص٢٢، ٢٣): [الطويل]

حبيبيَ يا مختارُ يا كنزَ مقصِدي
ومنهاجَ آمالي وبهجةَ روضَتي

ذنوبي وزلّاتِي لِحظّي تعاظمَتْ
يا ربّ عفواً فإني خائفٌ وجلْ

وأنت الّذي تُرجَى لكلّ عظيمَة
وليس لي صالحٌ يُرجى ولا عملُ

بكَ اليومَ لي أَرجو النّجاةَ وفي غدٍ
فاقبلْ إلهي معاذيري وَجُدْ كَرَمَاً

يكونُ ليومِ الفَصلِ أعظمُ وَصلة
فحبلُ جُودِكَ بالخيراتِ متصلُ

فأنت الّذي لولاه ما كانَ آدمُ
واغفرْ ذُنوبي وزلّاتِي الّتي عظُمَتْ

ولاكانَ نوحٌ قد نَجا في السّفينة
وحمّلتنيَ ما لا كنتُ أحتملُ

ولا كانَ إبراهيمُ في الحالِ نارُه
وقد تشفّعْتُ بالمختارِ من مُضرٍ

عليه غدَتْ بَرْداً بأرضِ أَرِيْضَة
فهو الشّفاءُ الذي تُشفى بهِ العللُ

ولولاهُ موسى ماءَ مدينَ لم يَرِد
الفاتحُ الخاتمُ الماحي الّذي

ولا كانَ ليلاً يهتدي نحو جَذْوَة
حقّاً ببعثتهِ الأنباءُ والرّسلُ

نعم فهْوَ خيرُ الأنبياءِ جميعِهم
ومن تكنْ أنتَ في الدّارين ملجأُهُ

وأمّتُه معدودةٌ خيرُ أمّة
فليس خوفٌ عليهِ لا ولا وجَلُ

ضمّن ابن مليك حدثاً داخل آخر فلم تكن الوقفة مع الشّكوى من الذّنوب الباعث على النّظم، بل مهّد بها لذكر أمر ثانٍ وهو الحقيقة المحمّديّة المتجاوزة للحدود الزّمانيّة. وهي كما يرى الصرصريّ وابن مليك سبيلٌ إلى تقويم الاعوجاج الذّاتي الخاصّ والعام؛ لذا اقترن ذكر عوامل الضّعف بأمور إصلاحيّة (الحقيقة المحمّديّة) بوساطة آليّة (الوقفة التّضمينيّة) تربط أجزاء الزّمن، ممّا ساعد في استنهاض الماضي لإصلاح الحاضر.

ويظهر أنّ رغبة ابن مليك في إصلاح واقعه قادته إلى إظهار مكنونات النّفس – في مواضع أخر- بصورة مباشرة، يقول (ابن مليك، د.ت، ص٢٤، ٢٦):

[البسيط]

وينبّئ الصرصري باجتياح التّرك معتمداً الآليّة عينها، يقول (الصرصري، د.ت، ص٥٠٤):

[الخفيف]

عَهِدَ المصطفى بوحي السّلامِ
عهدَ حقٍّ لبيضةِ الإسلامِ

قد رواه الإمامُ أحمدُ في المسـ
ـندِ سيفِ المحتجّ عندّ الخصامِ

قالَ أشياخُنا هي البلدُ الجا
معُ فيهِ تكونُ دار الإمامِ

فهي الآنَ لا محالةَ بغدا
دُ محلُ الإمامِ دارُ السلامِ

فلماذا القلوبُ فيها ارتياعٌ ؟
وهو أوفى الورى بعَقْدِ زمامِ

وروى الحافظُ الأمينُ أبو دا
ودَ عن كلِّ ضابطٍ قوّامِ
قصّةَ التّركِ والسياقات
والوعدَ بأنّا نبيدُهُم باصطلامِ
فحقيقٌ على المؤيّدِ بالإيـ
ـمانِ تصديقُه بغيرِ اتّهامِ

بدأ الناظم مدحته بنبوءة فحواها (قدوم التّرك)، وقد أُثبتت صحتها في أكثر كتب الحديث النّبويّ، إذ روى بريدة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوله: "يقاتلكم قوم صغار الأعين يعني التّرك تسوقونهم ثلاث مرّات حتّى تلحقوهم بجزيرة العرب، فأمّا في السياقة الأولى فينجو مَنْ هرب منهم، وأمّا في الثّانية فينجو بعضٌ ويَهْلَكُ بعضٌ، وأمّا في الثالثة فيصطلمون" (أبو داود، د.ت، ج٢، ص٥١٥ (٤٣٠٥)).

ولم يكتفِ بما ورد في الحديث، بل أثبت الحدث بطريقة خاصّة به (إقامة الحجّة والبرهان)، يقول (الصرصري، د.ت، ص٥٠٤، ٥٠٥):

وأرى الرّعبَ بعدَ هذا عقاباً
هو عُقبى كسبِ الذّنوبِ العظامِ
قسماً بالمهيمنِ البَرِّ لولا
وعدُ صدقٍ بالوحي لا الإلهامِ
لم أكنْ أرتجي لأكثرِ أهلِ الـ
ـوقتِ خيراً لجهلِهم والتّعامي
فرّطُوا في الصّلاةِ حتّى أضاعُوا
وقتَها والزّكاةِ في كلِّ عامِ
شاعَ فيهم سبُّ الصّحابةِ والقو
لُ بخلقِ القرآنِ ذِي الإحكامِ
كذّبُوا بالقضاءِ والقدرِ المحـ
ـتومِ من ذي الجلالِ والإكرامِ
وأذاعُوا بالاعتزالِ وبالإر
جاءِ واستحسنُوا قبيحَ الأثامِ
ييْئَسُ المتّقي لهم من نجاةٍ
عندَ إصرارِهم على الإجرامِ

ألغى المادح الحدود الزّمانية بين الماضي والحاضر بوساطة آليّة الوقفة التّضمينيّة الّتي تسرّع زمن السّرد للوقوف عند جزئية هي المبتغى، وتضمّ أحداثاً عدّة من أزمنة مختلفة. فالأول مسترجع مفاده نبوءة قدوم الترك دلّ على صدق وقوعه بأحداث من واقعه المعيش. فلم تكن الغاية إثبات صدق النبوءة؛ لأنّه لم يتعرض لوصفهم كما جاء في الحديث (شم الأنوف، صغار الأعين...). أمّا ما أثبته من أمور فوصف خاصٌّ به مستمدٌّ من أحداث واقعه؛ لذا أبقى ما يناسبه (إقبال التّرك وتحقيق النّصر عليهم)، وساعده ذلك في بيان غرضه الرئيسيّ وهو ذكر عوامل الضعف:

١- الذّاتية الخاصة (ترك الصّلاة والزكاة).

٢- العامّة (سبّ الصحابة، خلق القرآن، تعدّد الفرق المذهبيّة من معتزلة ومرجئة) (أمين، د.ت ج٣، ص٢١، ص٣٤ ومابعدها ص١٦٢، ص٣١٦ ومابعدها).

إنّ صوغ بعض ظروف الواقع بآليّةٍ (الوقفة التّضمينيّة) تلغي مبدأ التّقسيم الزّمني يوشك أن يثبت أنّ استمرار الظروف الّتي أدّت إلى اجتياح تتريّ في زمن معين منذرٌ بغزو من نوع آخر، ويعبّر في الوقت نفسه عن وعي الشّاعر لطريقَ

الخلاص ، يقول (الصرصري، د.ت، ص٥٠٦، ٥٠٧):

[الخفيف]

يا سراجاً للمهتدين منيراً
منقذاً من عبادةِ الأصنامِ
دينُكَ الحقُّ ناسخٌ كلَّ دينٍ
ما بدا الصّبحُ عاقباً لظلامِ
ويريدُ الكفّارُ مَحْوَ سناهُ
دونَ ما حالوهُ ضربُ الحسامِ
فأعنّا عليهم وأغثْنَا
غوثَ نصرٍ على الطّغاةِ اللّئامِ
واسألِ اللهَ للإمامِ أبي أحـ
ـمدَ عوناً على الخُطوبِ الجِسامِ
بكَ يا سيّد َالبريّةِ أضحى
في الأقاليمِ نافذَ الأقلامِ
بك يُرجى لجيشِهِ الفتحُ والنّصـ
ـرُ لأعلامِهِ على الأعلامِ
فبعدلِ الإمامِ يُسْتَنْزَلُ النّصـ
ـرُ ويبقَى بهِ أشدَّ انتقامِ
هو أجدى نفْعاً وأسرعُ دفْعاً
للأعادي من ألفِ ألفِ غلامِ

مهّد الصرصري لمراده بأمرٍ لا تكاد تخلو مدحة من ذكر له (النّصرة بالرّسول)، إلا أنّه صاغه بآليّة الوقفة التّضمينيّة الّتي ضمّت حدثين من زمنين مختلفين: مدح الرّسول(صلى الله عليه وسلم) والنّصرة به (مسترجع)، وطلب الغوث للخليفة المستعصم (بردي، د.ت، ج٧، ص٥٠ وما بعدها) (حاضر)، وجعل زمنه جزءاً من زمن الأحداث (الماضي)، أي تداخلت أجزاء الزّمن فتغلغل الحاضر في الماضي ليكون شبيهاً به من ناحية الإصلاح إذا تحقّق الاقتداء بالرّسول (صلى الله عليه وسلم)، فصلاح القدوة في أيّ زمن يعني استقرار المجتمع؛ لذا جعل وقفته الأولى (مدح الرّسول) الطريق الموصل إلى مقال يُطلب به العون للحاكم مقروناً بدعوته إلى الاقتداء به،وهذا يلائم غايته الإصلاحية ويدخل المدحة في النسق غير المباشر للإصلاح. ويمكن أن يُرَدّ ذكر الخليفة في قصائد المدح النّبويّ إلى إيمانٍ مذهبيّ عقدي يعدُّ الخروج على الحاكم بدعة، والصرصريّ يعرض ظروف واقعٍ معيش ويلتمس الحلول، فيقرن الحديث عن الرّسول(صلى الله عليه وسلم) بالخليفة في أغلب الأحيان، يقول (الصرصري، د.ت، ص١٩٥): [الطويل]

وأمّةُ هذا المصطفى خيرُ أمّةٍ
تقودُ الفتى للخيرِ وهْوَ يسيرُ
وإنّ بني العبّاس فينا أئمّةٌ
إلى أن تُقضَّى أزمنٌ وعصورُ
ومن سلَّ سيفاً يَبتغيهم ففاجرٌ
يقاتلُ أو عمّا يَرومُ يَجورُ

وقد سار على نهج الصرصريّ عدد من الناطمين فضمّنوا مدائَحهم وقفةً مع النّموذج الواقعيّ الحيّ، فوقفة وصفيّة مع معجزة القرآن الكريم مهدّت للبوصيري (ت٦٩٦ هـ) الكلام على فضل علماء أمّة الرّسول، إذ إنّهم – كما رُوي– مثل أنبياء بني إسرائيل، يقول (البوصيري، ١٩٥٥م، ص٣٨، ٣٩): [الوافر]

وما آياتُه تُحصى بِعَدٍّ
فيُدْرِكُ شأوَها منّي طَلُوبُ
يجودُ سحابُهنّ ولا انقشاعٌ
ويَزخَرُ بحرُهُنَّ ولا نُضُوبُ
فَرَاقَكَ من بوارقِها وميضٌ
وشَاقَك َمن جواهرِها رُسوبُ
هدانا للإلهِ بها نبيٌّ
فضائِلُهُ إذا تُحكى ضُرُوبُ
وقد نالُوا على الأممِ المَواضي
به شَرفاً فكلُّهم حسيبُ
كأنَّ عليمنا لهُم نبيٌّ
لدعوتِه الخلائقُ تستجيبُ
وما علماؤنَا إلا سيوفٌ
مواضٍ لا تُفَلُّ لها غُروبُ
سَرَاةٌ لم يَقلْ منهُم سَرِيٌّ
ليومٍ كريهةٍ يومٌ عصيبُ
يشوقُكَ منهم كلُّ ابنِ هَيجا
على اللأواءِ محبوبٌ مهيبُ

ربط البوصيريّ الماضي (القرآن) بالحاضر (ذكر العلماء) عن طريق آليّة تعمل على تسريع الزّمن وتُدَاخِلُ أجزاءه، فيغدو زمن الحكاية الثّانية تابعاً لزمن الحكاية الأولى وكأنّه هو نفسه؛ ليعبّرَ من خلال ذلك عن رغبة إصلاحيّة متمثّلةٍ بالتّأسي بالعلماء ورثة العلم النّبويّ من دون أن يقصرها على زمن النّظم ، بل إنّ آليّة الوقفة أثبتت جدوى دعواه في كلّ زمان، ومع أنّ الصرصري سبق البوصيري إلى ذكر العلماء إلا أنّه لم يبلغ شأنه، يقول (الصرصري، د.ت، ص٣٣٩): [الطويل]

كذا أخبرَ الهادي النبيُّ محمّد
وما قالَه حقٌّ وجاءَ به صدقُ
همُ العلماءُ الغرُّ كالأنبياءِ من
سلالةِ إسرائيلَ بالمصطفى ارتقَوا
شُهودٌ على الماضينَ من أممٍ طغَت
على الأنبياء والمصطفى شاهدٌ حقُّ

يبدو أن الحديث عن العلماء – عند الصرصري- جاء في ثنايا مدحته النبوية ملاءمةً لمتطلبات النّظم، فمدح الرسول الكريم يقتضي أموراً عدّة، منها الحديث عن آله وأصحابه وجهاده و العلماء الّذين ارتقوا بالرّسول(صلى الله عليه وسلم). أمّا البوصيري فجعل الغاية الإصلاحية الباعث على النّظم، وتتمثّل في الدّعوة إلى التّأسي بالعلماء (النموذج الواقعي المحتذى لإصلاح الواقع).

ويعتمد البوصيري آلية الوقفة التّضمينيّة في أثناء حديثه عن النّار التي أحرقت الحرم الشريف، يقول(البوصيري، ١٩٥٥، ص٦٤): [الطّويل]

وما لَيّنَت ْنارُ الحجازُ قلوبَكم
وقد ذابَ من حرٍّ بها الحجرُ الصَّلدُ
أَتَتْ بشَواظٍ مكفهِرّ نحاسُه
فلُوِّح منها للضّحى والدّجا جِلْدُ
تدمرُّ ما تأتي عليه كعاصفٍ
من الريحِ ما إن يُسْتطاع له ردّ
تمرّ على الأرضِ الشّديدِ اختلافها
فتنجدُ غوراً أو يغورُ بها نجدُ

وتخشى بيوتُ النارِ حرَّ دخانِها
ويزدادُ طغياناً بها الفرسُ والهندُ
فلو قربَتْ من سدّ يأجوجَ بعد ما
بنى منه ذُ القَرنين دُكّ بها السدُّ

لم يكن الكلام على أثر النار هو مبتغى الشّاعر، بل إنه مهّد به لذر أسباب الحريق، يقول(البوصيري، ١٩٥٥، ص٦٤):

ولّما أساءَ الناسُ جيرةَ ربِّهم
ولم يرعَها منهم رئيسٌ ولا وغدُ
أراهُم مَقاماً ليس يُرعى لجارهِ
ذمامٌ ولم يُحفظْ لساكِنه عهدُ

قطع البوصيريّ التّتابع الزّمنيّ الخاصّ بأحداث مدحته، متوقفاً عن وصف أثر النار ليذكر الأسباب، ثم عاد إلى وصف الأثر مرّة أخرى من دون أن يكون هو المرادَ، بل أضاء به الحدث الذي تلاه وهو إيجاد الحلّ، يقول(البوصيري، ١٩٥٥، ص٦٥):

مدينةُ نارٍ أُحكمَتْ شُرفاتُها
وأبراجُها والسّورُ إذ أُبدعَ الوَقدُ
وقد أبصرَتْها أهلُ بُصرى كأنّما
هي البصرةُ الجاري بها الجزرُ المدّ
أشارَتْ إلى أنّ المدينةَ قصدُها
قرائنُ منها ليس يَخفى بها القصدُ
يروحُ ويغدو كلُّ هولٍ وكُربةٍ
على النّاسِ منها إذ تروحُ وإذ تَغدو
فلمّا التجوا للمصطفى وتحرّمُوا
بساحتِه والأمرُ بالنّاسِ مشتدُّ
أتَوا بشفيعٍ لا يُردُّ ولم يكنْ
بخلقٍ سواه ذلك الهولُ يرتَدُّ
فأُطفئَتِ النُارُ الّتي وقفَ الورى
حيارى لديها لم يُعيدوا ولم يُبدوا
فإن حدثَتْ من بعدِها نارُ فِرْيَةٍ
فما ذلك الشيءُ الفريُّ ولا الإدُّ

غدت وقفات البوصيري وسيلةً فنيّةً لرسم بعض ملامح الواقع من خلال عرض الأحداث وطرائق الإصلاح. فالحدث واحدٌ بدأه بالوصف (التّدمير، صهر الحجارة...) و قطعه لبيان السبب (إساءة النّاس) ثمّ عاد للوصف ليعدلَ عنه مرة أخرى ملتمساً الحلّ (الالتجاء للمصطفى). وقد أدّى ذلك إلى ازدياد تعقيدات السرد أولاً، وأفاد أن مغزى الحدث ومبتغاه يكمن في تبعاته، كما هو مبيّن في الشّكل الآتي:

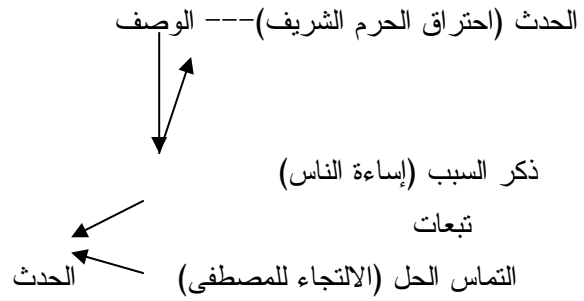

ولم يكن البوصيري أول من تعرّض لوصف النّار، فالصرصريّ نَظَمَ مدحةً وَصَفَ فيها الحريق بقوله: (الصرصري، د.ت ، ص٤٧١) [الطويل]

مدينتُه يشفِي الجذامَ غبارُها
وتحمي إذا الدّجّالُ عمّ َاصطلامُهُ
وما كان فيما كان نقصٌ وإنّما
هو الوعظ ُللعاصي الشنيعِ أثامُهُ
وأنّى ينالُ النّقصُ نوراً مضاعفاً
مديداً إلى يومِ النّشورِ دوامُهُ

اكتفى الصرصري بالإشارة إلى مكان حدوث النار، ووصفه بالنور، أمّا البوصيري فجعل وقفاته الوصفيّة وسيلةً للتّعبير عن وجهة نظرٍ خاصةٍ للأحداث، ابتغى من خلالها الإصلاح معتمداً آلية تُسرّع زمن السرد، ويظهر أنّ ذلك – حسب الأحداث المصوغة باعتماد آليّة الوقفة- يُعبّر عن رغبة في استنهاض الزّمن الماضي إلى الحاضر واستمراره أيضاً.

فالوقفة – إذن – تحمل طابع التبئير(جينيت، د.ت، ص٤٢)، وقد وظّف المادح أحداثاً بعينها ليعبّر عن رؤية إصلاحية وهي استحضار الماضي لإصلاح الحاضر بوساطة الاقتداء بالرّسول (صلى الله عليه وسلم) والالتجاء إليه لتجاوز ظروف الواقع.

ومع تشابه معظم موضوعات المدائح النّبويّة، إلا أنّ البوصيريّ يوشك أن ينفرد عن غيره، ولاسيّما في أثناء كلامه على حادثة كربلاء(إبراهيم، ١٩٦٤م، ج١، ص٣٩٨، ٣٩٩)، يقول (البوصيري، ١٩٥٥م، ص٢١، ٢٢): [الخفيف]

وعليٌّ لّما تَفلتَ بعينيـ
ـهِ وكلتاهما معاً رَمداءُ
وبرَيْحانتيِ طيبُهُما منـ
ـكَ الّذي أودعَتْهُما الزّهراءُ
من شهيدينِ ليس يُنسيني الطّـ
ـفُ مُصَابَيْهِما ولا كربلاءُ
كلُّ يومٍ وكلُّ أرضٍ لكرْبي
منهمُ كربلاء وعاشوراءُ
ربّ يومٍ بكربلاءَ مسيءٍ
خفّفَتْ بعضَ وِزرِهِ الزّوراءُ
آل بيتَ النّبيّ طِبْتُم فطابَ الـ
ـمدحُ لي فيكُم وطابَ الرِّثاءُ
وبأصحابك الذين هم بعـ
ـدَك فينا الهداةُ والأوصياءُ
أحسنُوا بعدَك الخلافةَ في الدّيـ
ـنِ وكلٌّ لّما تولّى إزاءُ
كلُّهم في أحكامِه ذو اجتهادٍ
وصَوَابٍ وكلُّهم أَكْفَاءُ

قدّم البوصيري وقفتين تتناولان حدثين مسترجعين (آل البيت، الصّحابة واختلاف أحكامهم). ومع ذلك فهما شديدا الصلة بظروف واقعه بدلالة آليّة الوقفة التّضمينيّة الّتي تبيّن سبب التّوقّف عند هذا الحدث، وهي من الآليّات الّتي تسرّع زمن السّرد. وقد اعتمدها البوصيري في أكثر مدائحه ليناسب بين حدثين من زمنين مختلفين، إلا أنّه في هذا الموضع جعلها شكلاً فنيّاً لحدثين من طبيعة زمنيّة واحدة (الزّمن الماضي)، وهما وثيقا الارتباط بزمن النّظم (الحاضر)، فقد وطّد بهما أركان مشروعه الإصلاحيّ القائم على التبرؤ من الرّفض والنّصب وقبول تعدد الانتماءات والمذاهب، يقول:

كلُّهم في أحكامِه ذو اجتهادٍ
وصَوابٍ وكلُّهم أَكْفَاءُ

فالاختلاف لا خطر له مادام الدّين واحداً؛ لذا صاغه ضمن آليّة الوقفة الوصفيّة الممهّدة للحدث القادم موطن العبرة والرؤية. فالوقفة الأولى (الحديث عن آل البيت) وصفيّة ومع ذلك تتيح للعقل فرصة التّفكر لأخذ العظة من قصص القدماء. أمّا الوقفة الثّانية (ذكر أصحابه واختلاف أحكامهم) فتعبّر عن رغبة في استمرار الحدث بدليل آليّته. ويؤكّد المقصد نفسه بقوله (البوصيري، ١٩٥٥م، ص٣٤) [المديد]

وتبارَأنا من النّصبِ والرّف
ـضِ وأَوجبْنا لكلٍّ جَنابا

وبذلك تُنتفى شبهتا الرّفض والنّصب اللّتان وجد فيهما الأعداء سبيلاً إلى زعزعة أركان الأمة والتّفرقة.

وسار على نهجه عددٌ من الشعراء، منهم الحلّي الشّيعيّ المذهب (ت٧٥٠هـ)، ومع ذلك يمدح الصحابة راسماً من خلاله الخطوط الرئيسة للإصلاح المتحقق بوحدة الصّف وقبول الاختلاف، يقول (الصفي الحلي، د.ت)

[الطويل]

ولائِي لآلِ المصطفى عقْدُ مذهبي
وقلبِي من حبِّ الصحابةِ مفعمُ
وما أنا ممّن يَستجِيزُ بحبِّهم
مسبّةَ أقوامٍ عليهُم تقدّمُوا
ولكنّني أُعطي الفريقينِ حقَّهم
وربّي بحالِ الأفضليّةِ أعلمُ
فمن شاءَ تعويجي، فإنّي معوّجُ،
ومن شاءَ تقويمِي، فإنّي مقوّمُ

فالوقفة التّضمينيّة - كما تجلّت في المدائح النّبويّة- وقفتان:

الأولى: وصفيّة تعرِض ظروف الواقع وعوامل الضّعف في أغلب الأحيان.

الثّانية: استرجاعيّة إصلاحيّة تناسب كلّ زمان.

٢ - الوقفة التعليقيّة

ظهرت أغلب الوقفات التعليقيّة في الأحداث المسترجعة، وهي استرجاعات فرضتها ظروف الواقع، وقد اعتمدها المادحون في صوغ بعض أحداث المدحة النبوية، ومنهم البوصيري في أثناء كلامه على جهاد أصحاب الرسول الكريم، يقول (البوصيري ، ١٩٥٥م، ص١٩٨، ١٩٩):

[البسيط]

راعَتْ قلوبَ العدا أبناءُ بعثتِه
كنبأةٍ أجفلَتْ غفلاً من الغنمِ
ما زال يلقاهم في كلِّ مُعترَكٍ
حتّى حَكَوا بالقنا لحماً على وضمِ
يجرّ بحرَ خميسٍ فوقَ سابحةٍ
يرمي بموجٍ من الأبطالِ مُلتطمِ
من كلِّ مُنْتَدِبٍ لله مُحتسِبٍ
يسطو بمستأصِلٍ للكفرِ مُصطلِمِ
حتى غدَتْ ملّةُ الإسلامِ وهيَ بهم
من بعدِ غربتِها موصولة الرّحمِ

مكفولةً أبداً منهم بخيرِ أبٍ
وخيرِ بعلٍ فلم تيتمْ ولم تَئمِ
المُصدري البيضَ حمراً بعدما وردَتْ
من العدا كلّ مُسوَدٍ من اللِّمَمِ
والكاتبين بسمرِ الخطِّ ما تركَتْ
أقلامُهم حرفَ جسمٍ غيرَ منعجمِ
تهدي إليك رياحُ النّصرِ نشرَهُمُ
فتحسبُ الزَّهرَ في الأكمامِ كلَّ كَمي
طارَتْ قلوبُ العدا من بأسِهم فَرَقاً
فما تُفَرِّقُ بين البَهمِ والبُهَمِ

لا توشك مدحة نبوية أن تخلو من وقفة مع قضية الجهاد والغزوات، إلا أنّ وقفة البوصيريّ قطعت التّسلسل الّذي اصطنعه لعرض أحداثه، فقد بدأ بالحديث عن المعجزات (انصداع الإيوان، انطفاء النار، سجود الأشجار، نسج العنكبوت، القرآن، الإسراء والمعراج)، ثمّ انتقل للكلام على قضية الجهاد مصوغة بآليّة الوقفة الّتي تجعل زمن الحدث جزءاً من زمن الخطاب؛ لأنّ الوصف الكائن فيها خاصٌّ بالنّاظم وليس عامّاً مثبتاً في أكثر مصادر المدحة النبوية، فوقفته تناسب واقع عصره إذ إنّ الغزو الصليبيّ دخل متستّراً باسم الدّين، والمقال المناسب وقفة مع جهاد إصلاحيّ لا ظلم فيه ولا تعسف، لتُنقَى بعض الشّبهات المُثارة الّتي وجد فيها الأعداء فرجة لتحقيق مبتغاهم، منها (الصراع بالسيف) (ابن قيم الجوزية، ١٩٦٩م، ص٢٣٢، ٢٣٣) ويمكن أن تُردّ إلى رغبة إصلاحيّة؛ لذا لم يعرض ظروف الواقع بل جاء بوقفة زمنيّة وضمّنها غايته (الدّعوة إلى الجهاد) لإثبات جدواها في كل زمان. فالوقفة – إذن- مقصودة لذاتها تعليقيّة على حدث استرجاعيّ، تستنهض زمنه؛ لأنّه يتضمّن في ثناياه مقصدّيته وباعث النظم. ويبدو أنّ البوصيري بنظمه قدّم نموذجاً صالحاً يُحتذى به في كلّ زمان، وهذا ما حدا ببعضهم إلى القول: "والبوصيري بهذه البردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين، ولقصيدته أثرٌ في تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فمن البردة عرفوا أبواباً من السّيرة النّبويّة، وعن البردة تلّقوا أبلغ درس في كرم الشّمائل والخلال" (مبارك، ١٩٣٥م، ص١٦٢).

وإذا كان المادح قد ألمح من خلال وقفته مع الجهاد إلى الشّبهة المثارة فهو في مواضع أخرى يُصرّح بأنّ سطو الرّسول (صلى الله عليه وسلم) وقع على من سطا فقط، يقول(البوصيري، ١٩٥٥م، ص٥٠):

فقامَ المصطفى بالسّيفِ يَسطو
على السّاطي بهِ ولهُ وثوبُ

أمّا البرعي (ت٨٠٣هـ) فلا تكاد تخلو مدحة له من ذكر هذه القضيّة، يقول(البرعي، ١٩٥٨م، ص١٣٤): [الوافر]

نضاه اللهُ للإسلام سَيفاً
أزالَ بهِ الضّلالةَ والنّفاقَا
فكانَ لأهلِ دينِ اللهِ عِزّاً
وللهيجاءِ حينَ تقومُ سَاقا
أبادَ المشركينَ بكلِّ ثغرٍ
وقادَ الخيلَ شاذبةً وسَاقَا
وفرّقَ شَوكةَ الفِرقِ الطّواغِي
وأرْوَى منهم القضبَ الرِّقَامَا

وعادَتْ شامخاتُ الكُفرِ وَهْداً
وأمشَى فوقَهُ الخيلَ العتَاقَا

وبالمقارنة بين غاية البوصيريّ المتوارية ضمن وقفة مع قضيّة الجهاد والذّكر الصّريح عند البرعي يُخلص إلى أنّ الآليّة عند البوصيري ساعدت في الوصول إلى المبتغى. ويمكن أن يُردَّ ذلك إلى أنّ القضيّة الّتي أشار إليها من عوامل الضّعف غير المباشرة؛ لذا عبّر عنها بطريقة غير مباشرة جاعلاً الآليّة تُبلّغ مراده. وكلّ ذلك لم يفقد النّصّ شعريتّه، إذ إنّ للإيحاء في الشّعر من التّأثير ما يفوق التّصريح (ابن طباطبا العلوي، ٢٠٠٥م، ص٢٤).

وينطبق الأمر نفسه على معجزة القرآن الكريم، فمنهم من التفت إلى قضية الإعجاز، ومنهم من تناولها بما يلائم ظروف الواقع، وفي أبيات الشّهاب محمود (ت٧٢٥هـ) ما يثبت ذلك، يقول (النبهاني، د.ت، ج١، ص٥٩٤، ٥٩٥): [الرّمل]

خصَّهُ اللهُ بالكتابِ الّذي نصَّ
عليهِ من قبلُ في الألواحِ
ولقد عارضَ اليهودُ هداهُ
بعماهم ودافعُوا بالرّاحِ
بعدما أوضحُوهُ عنه وقالُو
هـ وكانُوا بهِ ذوي استفتاحِ
وأبانُوا زمانَه ذاك حتّى
راقبُوهُ مثلَ ارتقابِ الصَّباحِ
ثمّ لّما أتاهُم أدبَرُوا عنـ
ـهُ فَضَلُّوا مع علمِهم بالفَلاحِ
وَلَكَم عاندُوا اليقينَ ولكن
من يُباهي الشّموسَ بالمصباحِ
عرفُوه وعوّلُوا في اندفاعِ الـ
ـحقِّ عنهم على الوجوهِ الوقاحِ
ولقد أفصحَ المسيحُ وقد سـ ـمّـ
ـاه ُفي الذِّكرِ غايةَ الإفصاحِ
وكذاك الرُّهبانُ قالُوا بعلمٍ
عن علاماتِه الحسانِ الصِّحَاحِ
حذّرُوا عمَّهُ اليهود فكانُوا
في الّذي حذّرُوا من النُّصَاحِ

جعل الشّهاب وقفته وسيلة فنّيّة لرسم ملامح الواقع، فلم يقتصر على استرجاع جزئيّات الحدث فيصف بلاغة القرآن أو يذكر المعجزات الأخرى بل تكلّم على معارضات القرآن. فوقفته لم تكن تزيينيّة تحسينيّة إنّما تعليقيّة عرض من خلالها لعامل ضعف داخليّ [إثارة الشّبهات وإنكار نبوّة الرّسول (صلى الله عليه وسلم)] (ابن هشام، ٢٠٠٣م، ج١، ص١٦٠).

وبما أنّ الوقفة من الحركات الزّمنيّة الّتي تعمل على تسريع الزّمن فإنّه من الواضح أنّ إثارة الشبهات المصوغة بآليّة الوقفة في أي زمنٍ عامل ضعف وجد فيه الأعداء مسرباً إلى تحقيق مرادهم. ويشهد واقع الحال في العصر المملوكيّ بذلك، إذ عرف النّاس غزواً مباشراً (التّتري والفرنجيّ) وغير مباشر تمثّل في إثارة الشّبهات؛ لذا كثرت الرّدود سواء كانت نثريّة (ينظر كتاب ابن قيم الجوزية ، هداية الحيارى في الرد على أجوبة اليهود والنصارى ١٩٦٩م) أم شعريّة (ينظر

قصيدة البوصيري المخرج والمردود على النصارى واليهود).

ويعرض ابن مليك الحموي المعنى نفسه بقوله (ت٩١٧هـ) (ابن مليك د.ت، ص٢٧):

[البسيط]

وجاءَ للنّاسِ بالقرآنِ فانتسخَتْ
بما بهِ جاءَ توارةٌ وإنجيلُ
ولم يزلْ ذلكَ الحقُّ المبينُ به
يعلو وتَسْفَلُ هاتيكَ الأباطيلُ
حتّى علَتْ رايةُ الإسلامِ وانتصَبتْ
في الحالِ واندرسَت ْتلكَ التّماثيلُ
وعُصْبَةُ الكفرِ ولّتْ وهْيَ مُدبرةٌ
تدعُو الفرارَ وسيفُ الشّركِ مفلولُ
دعُوا مقالَ النّصارى في نبيّهمُ
يامادحِيهِ ومهما شئتمُ قُولُوا

استطاع الحموي بوقفته التعليقيّة الجمع بين أمرين: الإصلاح و عرض بعض ظروف الواقع مثل (إثارة الشّبهات)، وقد شغلت وقفته مع معجزة القرآن الحيّز الأكبر، ليثبت صلاحيّته في كلّ زمان بدلالة الوقفة التعليقيّة الزّمنيّة.

فالوقفة التعليقيّة –إذن– أحداثٌ مسترجعة، إمّا أن تعرض وإمّا أن تلتمس الحلول لعوامل الضعف غير المباشرة.

ولعلّ المدائح النّبويّة بوقفاتها الموافقة لظروف الواقع أضافت دلالاتٍ قيّمةً جعلت منها مثالاً يحتذى، ويتضح ذلك من خلال معارضة أشهر قصائدها واختيار أحداثٍ من الواقع المعيش، مثل قصيدة أحمد شوقي الّتي عارض فيها همزيّة البوصيريّ وضمّنها بعض القضايا المستمدة من ظروف زمانه منها: قضيّة الاشتراكيّة، يقول(شوقي، د.ت، ص٣٨) [الخفيف]

فرسمْتَ بعدَكَ للعبادِ حكومةً
لا سُوْقَةٌ فيها ولا أُمراءُ
اللهُ فوقَ الخلقِ فيها وحَده
والنّاسُ تحتَ لوائِها أكْفاءُ
والدِّينُ يُسرٌ والخلافةُ بَيْعَةٌ
والأمرُ شورى والحقوقُ قَضاءُ
الاشتراكيّونَ أنت إمامُهم
لولا دَعاوى القومِ والغُلَواءُ
الحربُ في حقٍّ لديكَ شريعةٌ
ومن السّمومِ الناقعاتِ دواءُ

يبدو أنّ الوقفة لم تكن عالةً على جسد النّصّ أو محسّناً أسلوبيّاً، إذ توقف سير الأحداث لعرض جزيئات حدث معيّن مستمد من الواقع. وهذا ما استدعى إيجاد الحلّ الملائم سواء أكان بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، وفي كلتا الحالتين لم تفقد المدائح النّبويّة شعريّتها، بل أوشكت أن تكتسب قيمتها من المقاصد الّتي سعت إلى إبلاغها، منها الرّغبة في الإصلاح عن طريق استنهاض الزّمن الماضي.

ويمكن القول: إنّ الوقفة آليّة فنّيّة وظيفيّة دالةٌ على معنى، أثبتت أنّ شيوع هذا الفنّ لم يكن محض مصادفة أو دليل زهد ورغبة في إثبات البراعة البلاغيّة، بل أدخلته في نطاق النّقد السياسيّ والاجتماعيّ، مع أن هذا الأمر أُفرِدَت له قصائد خاصّة كما هي الحال عند البوصيريّ الذي نقد

موظّفي الدّولة، يقول(البوصيري، ١٩٥٥م، ص٢١٨): [الوافر]

ثَكِلْتُ طوائفَ المُستخدَمينا
فلم أرَ فيهم رجلاً أمينا
فخُذْ أخبارَهُم منّي شِفاهاً
وأنظِرني لأخبرَكَ اليقينَا
وقد سرقُوا الغِلالَ وماعلِمنا
كما سرقَتْ بنو سيفٍ الجُرُونَا

الخاتمة ونتائج البحث

- الوقفة آلية فنية عبرت عن رؤية المادح للحدث؛ لأنها قطعت التتابع الزمني الذي اصطنعه الناظم وربطت أجزاء الزمن الماضي بالحاضر وفق مبدأ السببية المبيّن سبب تداخلهما بأسلوب غير مباشر، فاقترن ذكر الخليفة- على سبيل المثال- بمدح النّبي الكريم، وعلة الجمع بينهما الدعوة إلى الاقتداء بالرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أملاً في الإصلاح.

- الوقفة تقانة منحت النص سمة الشعرية، بالإضافة إلى كونها أداةً لإدراك المضمون الشعري.

- المدح النّبويّ- في معظمه- نقدٌ وإصلاحٌ وضربُ مثل بالقدوة الصالحة في كلّ زمان وإحداث التّغيير والتّجاوز لبناء مجتمع جديد.

- ولعل البحث لا يجانب الصواب إن أكّد أن شعرية الأحداث في المدائح النّبويّة تكمن في المعنى المصوغ بآليات فنّيّة، وتبدّى ذلك عند مقارنة نظمٍ جعل الآليّة سبيلاً إلى إبلاغ المضمون بنظمٍ عبّر عن مبتغاه بأسلوب مباشر. وذلك من مستلزمات النّظريّة الشّعريّة الّتي تجعل الخصائص الفنّيّة الأساس المعبِّرَ عن تفرّد الحدث الأدبي والوعي الفكريّ للشّاعر.

المصادر والمراجـع

- **إبراهيم، حسن**، *تاريخ الإسلام السّياسي والدّيني والثّقافي والاجتماعي*. ط٧. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية.١٩٦٤م.
- **ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين**، *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. تح: محمد محيي الدين عبد الحميد. مصر. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. ١٣٥٨ هـ، ١٩٣٩م
- **أمين ، أحمد**، *ضحى الإسلام*. ط١. بيروت، لبنان. دار الكتاب العربي. د. ت.
- **بارت، رولان**، *النقد البنيوي للحكاية*. تر: إنطوان أبو زيد. د. ت.
- **بردي، جمال الدين أبو المحاسن بن تغردي**، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب. وزارة الثّقافة والإرشاد القومي. المؤسسة المصرية العامة. د. ت.
- **البرعي، عبد الرحيم**، *شرح ديوان البرعي في المدائح الربانية والنبوية والصوفية*. ط٢. مكتبة القاهرة. دار العهد الجديد. ١٣٧٨هـ، ١٩٥٨م.
- **برنس، جيرالد**، *المصطلح السردي (معجم مصطلحات)*. تر: عابد خزندار. مراجعة وتقديم: محمد بربري. المجلس الأعلى للثقافة. ٢٠٠٣م
- **البوصيري، شرف الدين محمد بن سعيد**، *الديوان. تح: محمد سعيد كيلاني*. ط١، مصر. مطبعة مصطفى البابي. ١٣٧٤ هـ، ١٩٥٥م.

- **جاكبسون، رومان**، *قضايا الشعرية*. تر: محمد الولي ومبارك حنون. ط١، . المغرب. دار توبقال. الدار البيضاء. ١٩٨٨م

- **جينيت، جيرار**، *عودة إلى خطاب الحكاية*. تر: محمد معتصم، تقديم: سعيد يقطين. المركز الثقافي العربي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. د. ت.

- **حسين، علي صافي**، *ابن دقيق العيد (حياته - ديوانه)*. مصر. دار المعارف. د. ت.

- **حطيني، يوسف**، *مكونات السرد في الرواية الفلسطينية*. دمشق. اتحاد الكتاب العرب.١٩٩٩م.

- **درويش، حسن**، *النقد الأدبي بين القدامى و المحدثين (مقاييسه واتجاهاته وقضاياه)*. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. د. ت.

- **الركابي، جودت**، *الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار*. دمشق. دار الفكر. ١٩٨٢م.

- **ستار، ناهضة**، *بنية السرد في القصص الصوفي (المكونات والوظائف والتقنيات)*. دمشق. اتحاد الكتاب العرب. ٢٠٠٣م.

- **شوقي، أحمد**، *الشوقيات*. بيروت. دار الكتاب العربي. د. ت.

- **ابن الشيخ، جمال الدين**، *الشعرية العربية*. تر: مبارك حنون ومحمد الولي ومحمد أوراغ. ط١، المغرب. الدار البيضاء. دار توبقال. ١٩٩٦م.

- **الصرصري، جمال الدين بن يحيى بن يوسف الحنبلي**، *الديوان*. تح: د. مخيمر صالح. جامعة اليرموك. د. ت.

- **الصفي الحلي**، *عبد العزيز بن سرايا*، الديوان. بيروت. دار صادر. د. ت.

- **ضيف، شوقي**، *عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران)*. دار المعارف. د.ت.

- **طودوروف، تزفيطان**، *الشعرية*. تر: *شكري المبخوت ورجاء بن سلامة*. المغرب. دار توبقال. الدار البيضاء. د.ت.

- **العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر**، *أنس الحجر في أبيات ابن حجر*. تح: شهاب الدين أبو عمرو. دار الريان للتراث. د. ت.

- **العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل** (ت٣٩٥ هـ)، *الصناعتين*. تح: علي محمد البجاوي ومحمد إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. ١٣٧١ هـ، ١٩٥٢م.

- **العلوي، ابن طباطبا**، *عيار الشعر*. تح: د.عبد العزيز بن ناصر المانع، دمشق. كلية الآداب. اتحاد الكتاب العرب. ٢٠٠٥م.

القزويني، الخطيب، *الإيضاح في علوم البلاغة*، الخطيب. شرح وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي. ط٦. منشورات دار الكتاب اللبناني. ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م

- **ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر**، *هداية الحيارى في الرّد على أجوبة اليهود والنصارى*. تح: د. محمد أحمد اللحام. ط١. دمشق. دار القلم. بيروت. الدّار الشامية. ١٩٦٩م.

- **كاصد، سليمان**، *الموضوع والسرد (مقاربة بنيوية تكوينية في الأدب القصصي)*. دار الكندي، ٢٠٠٢م.

- **كالر، جاناثان**، *النظرية الأدبية*. تر: رشاد عبد القادر. دمشق. منشورات وزارة الثقافة.٢٠٠٤م.

- **كوهن، جان**، *بنية اللغة الشعرية*. تر: محمد الولي ومحمد العمري. ط١. دار توبقال. الدار البيضاء. ١٩٨٦م.

- **لحمداني، حميد**، *بنية النص السردي من منظور النقد*

الأدبي. ط٣. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ٢٠٠٠م.

- **مبارك، د. زكي**، *المدائح النبوية في الأدب العربي*. مصر. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م.

- **محمد، د. حياة جاسم**، *نظريات السرد الحديثة*. المجلس الأعلى للثقافة. ١٩٩٨م.

- **مفتاح، محمد**، *تحليل الخطاب الشّعري (استراتيجية التّناص)*. ط١. المركز الثّقافي العربي. المغرب، الدّار البيضاء. ١٩٨٥م.

- **ابن مليك الحموي**، *علاء الدين علي بن عبدالله*، الديوان. المطبعة العلمية. د. ت.

- **ناظم ، حسن**، *مفاهيم الشعرية (دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم)*. ط١. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ١٩٩٤م.

- **النبهاني، يوسف**، *المجموعة النبهانية في المدائح النبوية*. دار الفكر. د. ت.

- **ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري**، *السيرة النبوية. شرح: د . محمد نبيل طريفي*. ط١. دار صادر. ٢٠٠٣م. ط٢. ٢٠٠٥م.